مجلة الرائد

العدد : ٢٣٤ الموافق في ذو الحجة ١٤٢٢ هجري ٣/٢٠٠٢ ميلادي

عنوان المقال : عبر من الماضي عن كتاب « مقدمة ابن خلدون » – الفصل التاسع عشر –٢–	الكاتب : د.أحمد المرايات

والسبب في ذلك واللّه أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرُها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم ؛ فيقصر الأمل ، ويضعف التناسل . والاعتمار إنما هو عن جِدَّة الأمل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية ؛ فإذا ذهب الأمل بالتكاسل ، وذهب ما يدعو إليه من الأحوال ، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم ، تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خَضَدَ الغَلْبُ من شوكتهم ، فأصبحوا مُغلَّبين لكل مُتغلّب وطعمة لكل آكل ، وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أم لم يحصلوا ، وفيه واللّه أعلم سر آخر وهو أن الإنسان رئيسٌ بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له ، والرئيس إذا غُلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده ، وهذا موجود في أخلاق الأناسي . ولقد يقال مثلُهُ في الحيوانات المفترسة ، وإنها لا تُسافِدُ إلا إذا كانت في مَلَكَةِ الآدميين ، فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء ، والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فَنيت حاميتهم في أيام العرب ، بقي منهم كثير وأكثر من الكثير . يقال إن سعداً أحصى ما وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً ؛ منهم سبعة وثلاثون ألفاً رب بيت ، ولما تحصلوا في مَلَكةِ العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلاً ودُثروا كأن لم يكونوا ، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم ، فَمَلَكَةُ الإسلام في العدل ما عَلِمْتَ ، وإنما هي طبيعة الإنسان إذا غُلب على أمره وصار آلة لغيره .

* عن كتاب « مقدمة ابن خلدون » - الفصل التاسع عشر